مخطوف

عن أم كامل وعينيها اللتين تطلبان الرحمة من مجهول: كيف يحمل هذا الجسد الواهن فقدان من رحلوا؟

«الحياة بلون الورود» معنى العبارة التي كتبت بالفرنسية على غلاف البوم الصور. وهو معنى، لا شك، اراده رضوان حمود عنوانا لحياته المقبلة مع عروسه خديجة حطيط. ربما لذلك اشترى هذا الألبوم بعينه، ووضع في صفحته الأولى صورته واياها يوم زفافهما. حتى اذا فتحت خديجة الالبوم، انطلقت موسيقى اغنية اديث بياف الرومنسية الشهيرة التي يقول مطلعها: «عندما يأخذني بين ذراعيه ويحدثني بصوت خفيض، أرى الحياة بلون الورود».

وهكذا، كانت تبدو الاغنية وكأنها ألفت خصيصا لهذه الصورة داخل القلب، والتي يبدو فيها رضوان حمود، الذي اختطف بعد اعوام مع شقيقي خديجة، شابا سعيدا، في حين بدت خديجة التي كانت ما تزال في سن المراهقة، اكبر من عمرها بقوة الماكياج.

لم تكن خديجة، التي تزوجت مرة اخرى بعد عشرة اعوام من اختطاف رضوان، هي المقصودة بالزيارة، بل والدتها. اذ ان الابنة الأخرى، ندى، اصطحبتنا اليها في منطقة حارة حريك من دون سابق موعد.

كانت خديجة على اهبة الرحيل لتستبق وصول ابنتها من المدرسة. لكنها تريثت لترى ما نريد. وعندما طلبنا صورا لشقيقيها عبد الرضى وأحمد، ولم نجد، اقترحت على اختها ندى ان تفتش في البوم عرسها الذي لم تأخذه معها الى منزلها الجديد. وهكذا، وقعنا على الصور والعبارة.

اما حين نبدأ بتصفح الصور فان خديجة تبتعد عنا الى الغرفة الأخرى وهي تقول ان عليها الذهاب لملاقاة ابنتها. تبدو لنا وكأنها تفر من الالبوم الذي تحول الى رمز للماضي الذي تحاول نسيانه. وعندما نسألها السماح بأخذ صورة لها ولزوجها الأول والد ابنتيها الكبيرتين من الألبوم تهز بكتفيها متصنعة اللامبالاة وهي تقول: «مش مشكلة»، ثم تسارع للتوضيح: انها متزوجة الآن.

تفوح رائحة الشوربا المختلطة بروائح الادوية المترسبة في هواء واقمشة الغرفة المحاذية للصالون حيث جلست الوالدة، أم كامل، في فراشها عاجزة عن الحراك. بمحاذاة سريرها، نوع من عكاز دائري مخصص لمن كسروا احواضهم. نتذكر قول ندى ان امها مريضة منذ اختطاف ولديها وصهرها بأمراض عدة منها السكري، والضغط، والقلب، ونشفان الشرايين و.. ترقق العظام.

وجه الوالدة الشاحب ونظرتها المستسلمة الفارغة من أي معنى الا ما يشبه طلب الرحمة من شخص مجهول يتغيران للحظة عندما تعرف من نكون. لكنها سرعان ما تعود الى ما كانت عليه وهي تردد: «قلنا كتير وحكينا كتير.. هذا نصيبنا».

وهي اذ تتلفظ بهذه العبارات يظهر انه لم يتبق من اسنانها البادية على الأقل الا اثنان واحد في الفك الأعلى والآخر في الفك الأسفل من الجهة المقابلة. نتنبه الى انها اصغر بكثير مما توحي به امراضها المتعددة واسنانها المتبقية. وكأن امراضها وسقوط اسنانها وعدم استعاضتها بأخرى اصطناعية اعراب عن رغبة ملحاحة بالنهاية، لكن للجسد احكامه.

ما أن نستقر حتى تحاول خديجة الاستئذان. لكننا نلح عليها البقاء بعد، قليلا، لتخبرنا كيف تلقت خبر

خديجة ورضوان يوم زفافهما

أم كامل: لو اعرف لهم قبراً...
(حسن عمار)

خطف زوجها. تذعن وتشرع بالكلام متعجلة: «كنا في الجنوب، في قريتنا البابلية. لم نتلق لا خبر ولا أي شيء. كلما هنالك انني كنت سالد ابنتي الثانية حنان، حيث كانت لدي ابنة كبرى اسمها زينة. وكنت انتظر مجيء رضوان.. وأنا أظن انه في بيروت.. وولدت حنان ولم يأت رضوان».

لتعجلها نلجأ الى الوالدة لتخبرنا بمعاونة ندى قصة الخطف: «عندي ثلاثة صبيان واربع بنات.. الموجودون يعني. وعندي أحمد وعبد الرضى مخطوفان. عبد الرضى كان يبلغ ٢٢ سنة وأحمد ١٤ سنة. عبد الرضى كان يشتغل بجريدة «القلسطينية» على طريق الجديدة، بالمطبعة. وأحمد كان لا يزال في المدرسة؟!».

تتدخل ندى: «صهري رضوان كان عنده سوبر ماركت على الاوزاعي. كانت الأيام صيف وحوادث. لذلك اصطحب أخي الأصغر أحمد معه من الضيعة الى المحل. وقال: «أحسن ما يضل دايز بالشمس على طلق الحنك، سآخذه هذا الأسبوع معي الى بيروت، بتكون ولدت خديجة منطلع نهار السبت». اما عبد الرضى فقد كان يعمل في المطبعة. اصلا كل اخوتي ولدوا وتربوا في المطبعة. لم يكن هناك إلا أحمد في المدرسة».

نسألها ان كان أحمد يعرف ماذا يريد أن يعمل عندما يكبر، فترد الوالدة: «لا.. لا.. اصلا ما كان فالح بالمدرسة، كان كسلان».. تقولها وهي تضحك. وكأن اطلاقها صفة الكسلان عليه يحييه بشكل ما.

تتابع ندى: «صار الاجتياح وقتها (الإسرائيلي في العام ١٩٨٢) كنت مع اهلي في البابلية. قتل بشير وقريب آخر طيار «لديه علاقاته» وعن زيارة تأمنت الى مراكز معروفة لتجميع المخطوفين وعن زيارة لمراجع كبيرة فزيارات الى مخطوفين اطلقوا.

تتأوه الوالدة وهي تقول: «والله يا بنتي، قضينا المقاضي».. ونزلنا كل جمعة على هدا شو اسمو؟ المتحف وعلى جامع الأزهر (دار الافتاء) ليعملوا لنا اجتماعات».

نسألها: «وماذا يقول لك قلبك؟» تنظر الينا بطرف عينها وترفع حاجبيها وهي تقول: «قلبي بيقول لي مش مبينين». لا نفهم ماذا تريد بتعبيرها الأخير. فنغامر: «راحوا يعني؟» فترد بعصبية: «لكن بعدهم طيبين؟ كل المخطوفين عند إسرائيل خرجوا والذين في الخيام أيضا أفلتوهم. لم يعد هناك من أحد».

نسألها: «من قال لك ذلك؟» فترد: «ما شرحوا لنا على التلفزيون؟!» ثم تعاود: «بعد خطفهم بحوالى ثلاثة او اربعة اشهر، كنت أتفرج على الحوادث في التلفزيون وأنا أقول لنفسي: شو؟ معقول ان يكونوا طيبين؟ (أحياء) اكيد لأ.. خلص. حكمني السكري وحكمني الضغط والقلب.. شو يعني خمس شباب يضهروا من بيتي»؟؟

نفهم انها تريد بكلمة «يضهروا» خروج الميت. فنستفهم عما تعنيه بالرقم خمسة. واذ بها تقول وهي تشير الى صورة شاب مراهق بالأسود والأبيض معلقة على الحائط: «وهذا؟؟ محمد؟ كان عمره ١٧ عاما عندما استشهد. شو بدي احكي لأحكي (يتهدج صوتها) ما عاد إلي خلق على الحكي والله العظيم».

ننظر الى الصورة وقد بدأنا نفهم تعبير وجهها. تشرح لنا ندى ان اخيها محمد استشهد العام ١٩٧٢ في مواجهة بين الفلسطينيين والإسرائيليين في مجدل سلم: «كان فدائيا.. لم تره ولم نستلم جثته».

تروي الوالدة: «كنا أنا ووالده رحمه الله في الجنوب واذ بجار لنا قريب يأتي ومعه جريدة فيها اسم محمد، ويقول لنا: هذا اما ابني او ابنك. ولما قرأنا الجريدة «حمل حالو» ونزل يفتش عليه. ذهبنا الى مخيم الرشيدية ثم الى مجدل سلم حيث قتل.

ولم يقولوا لنا بداية انه قتل: ساعة يقولوا لنا كان هنا، وساعة كان هناك... عشرون شابا دفنوهم مع بعضهم. ثم قالوا لنا: هذا قبره ورأينا اسمه على القبر». هذاك «محمد كان فلتة بالذكاء والعلم.. شو بدي أعمل؟ قتلت بحالي وهيانا.. بعدنا عايشين».

ثم تقول: «خمسة شباب خرجوا من منزلي، عبد الرضى وأحمد ومحمد وصهري.. «شو مش ابني وساتر عرضي؟» وزوجي؟ الم يكن شابا عندما «حكمته» القذيفة؟».

نبهت ونكاد لا نصدق هذا الكم من المصائب المنهال على هذه السيدة الضئيلة الجسم: «زوجك أيضا قتل؟».

«كيف لكن؟» ترد بعصبية لتتابع: «كنا قاعدين بالنويري وأنا كنت بالضيعة.. ذهب ليشتري دواء من صيدلية الشعار، «حكمته» قذيفة.. اصيب برئتيه.. نقلناه الى المستشفى بقي يومين لكن «ضاق خلقه» لأن معه ربو، فسمح له الطبيب بالخروج شرط ان يعتني بنفسه. في اليوم التالي «تقلت احوالو» بعيدا عنك وتوفى «وج الضو». طلعت لوحدي بالليل على الضيعة والدنيا حوادث.. وصلت ووجدت ابني عبد الرضى، فقلت له اذهب وعمك لتأتي بوالدك فقد توفي. دفنوه فوق. لكن محمد «دفنولي اياه هون» كنت بدي ادفنه بالجنوب. لكنهم دفنوه بالشهداء على شاتيلا. قال: خليه مع رفقاتو».

تشعل ندى سيجارة وهي تقول: «احيانا اقول لنفسي: لم لا.. الآن سيقرعو الباب ويدخلون.. لا أزال آمل عودتهم».

وكأن هذه العبارة تخاطب شيئا عند الأم: «أنا كمان.. أحيانا انا وقاعدة بقول يمكن يدقوا عليّ الباب. وأوقات.. مش مبينين. بس ابدا (يعلو صوتها) ما بيروحوا من بالي. أنام وهم ببالي آكل وهم ببالي.. لم أرهم ميتين.. لو رأيتهم لقلت: الله يرحمهم، هذا شغل الله. لكن ان يختفوا هكذا؟ قالوا لنا هذا قبر محمد، كنت اذهب الى القبر وأبكي وأفرّج عن نفسي. أختي تطلع الى قبره منذ اصابتي تضع له الآس والورد. لكن عبد الرضى وأحمد؟ أين قبرهم؟ لو قالوا لي هذا هو، لزرتهم مثل أخيهم..».

نسألها عن رأيها بالقانون الذي يسمح بإعلان وفاة من هم مخطوفين فتقول: «لم نعلن وفاتهم». وعندما نسأل لماذا؟ ترد: المختار لم يرد ان يعلن وفاتهم.

وما دخل المختار بذلك؟ ترد ندى «محمد، أخي الذي استشهد العام ١٩٧٢ مضى اليوم على وفاته ٢٩ عاما أليس كذلك؟ لم يرض المختار إعطاءنا وثيقة وفاة. قال انه لم ير الجثة.. ولذلك اسمه ما زال ينزل على اخراج القيد العائلي»!!

نسأل الوالدة ان كان اعلان وفاة ولديها المخطوفين يريحها، فترد ساهمة: «والله ما إجا ببالي، بس هلق إذا طلعت ع الصيفية، بدي شوف المختار إذا بيوفيلي اياهم.. يعني.. برتاح ما يرتاح.. الله أخبر»...

ضحى شمس

(الجميل) في ١٤ أيلول وكان يوم ثلاثاء، وهم اختطفوا بعد ظهر الأربعاء. كانوا في سيارتين الأولى فيها صهري رضوان حمود وأخي الأصغر أحمد والثانية فيها أخي عبد الرضى وصديق له اسمه علي حرب. آخر من رآهم شرطي سير من حاروف، نقطته على غاليري سمعان. قال لنا انه رآهم بعيد الساعة الثالثة بقليل فسألهم الى أين هم ذاهبون. فقالوا له: والله احسن شي نطلع نقعد بالضيعة. كانت خلدة مسكرة. لذلك أخذوا طريق غاليري سمعان ثم الجبل. لكننا لم نعرف باختطافهم الا بعد أسبوع وكانت خديجة قد ولدت».

تقول الوالدة: «يا عيني.. يا ليتهم ما طلعوا. جاء نهار السبت وصهري يعرف ان خديجة ستلد خلال الأسبوع لأن الطبيب أبلغه بذلك. ولدت خديجة السبت. قلنا: ربما لم يتمكنوا من المجيء. ولم يكن الهاتف يعمل مثل الآن. جاء يوم الأحد. لم يأتوا. جاء الاثنين لم يأتوا. والوضع في بيروت متأزم. الثلاثاء لم يأتوا. ونحن «مسرسبين» لكن لم يخطر في بالنا موضوع الخطف. قلنا ـ لا سمح الله لو ميتين لوصلنا خبر على الضيعة. الأربعاء، يعني بعد أسبوع من خطفهم، دخل علينا جيراننا هنا في بيروت من آل شحرور، هم معتادون ان يلعبوا فوق بالورق مع الشباب قالوا: وين الشباب؟ قلنا لهم: أي شباب؟ ما زالوا في بيروت. قالوا: بيروت؟ لقد تركوها الأربعاء الماضي وقالوا انهم سيأتون الى هنا! ساعتها عرفنا انهم مفقودون».

تأخذ ندى عنها: «لم نكن نعلم انهم مخطوفون. ظننا للوهلة الأولى انهم ماتوا على الطريق.. خديجة تضايقت جدا ونشف حليبها... يعني بنتها ما رضعت من صدرها». نفتش عن خديجة بنظرنا فلا نجدها في الصالون.

تعاود الوالدة بما يشبه النواح الخفيض: «نشف حليب ابنتها وهي تبكي.. كان عمر الصغيرة اربعة أيام».

نسألهم ماذا فعلوا حينها، فيحدثوننا عن قريبهم القاضي